الكتب

فى المحراب «ديوان»

تأليف الأستاذ محمد عثمان الصمدى

للأستاذ محمد رجب البيومى

منذ أكثر من خمس سنوات قرأت فى مجلة «الكاتب المصرى» قصيدة طويلة تحت عنوان «بين المثالية والطبائع البشرية» وقد راقنى منها وضوح الفكرة، وقوة النسج، ودقة التحليل، فاضطررت إلى تكرارها مرات عديدة حتى علق بذهنى كثير من أبياتها، وأخذت أفتش فى مجلاتنا الأدبية، عن شعر آخر لكاتبها المبدع فلم أوفق إلى شىء، حتى وقع فى يدى منذ أسبوع ديوان «فى المحراب» مبدوءاً بهذه القصيدة الفريدة فأخذت أطالعه فى كثير من الشغف والإعجاب، وشاهدت بين قصائده نظائر عديدة للقصيدة الأولى، فعلمت أن الينبوع الذى ينحدر منه هذا الشعر الجيد، دافق جياش لا ينضب له معين، وأسفت حين علمت أن ديوان «فى المحراب» قد صدر منذ عامين، وسكتت عنه المجلات الأدبية، فلم نقرأ له نقداً فى صحيفة، أو تقريظاً فى مجلة، مع أننا نطالع فى كل يوم كلمات كثيرة تدور حول دواوين ميتة لا تشبع عقلاً ولا تحيى عاطفة، وهكذا يرسب الدر فى قاع المحيط، بينما يتناثر على سطحه الأشلاء والعظام

ومن الخير أن نكشف من المميزات التى تظهر فى شعر الأستاذ الصمدى واضحة بارزة، وقد يكون أهمها ما نلمسه لدى الشاعر من عمق فى التحليل، وقوة فى التعليق، وجزالة محكمة رصينة، !! وتلك هى الأركان الثلاثة التى ارتقت بديوانه إلى منزلة سامقة تشرفه وتعليه، ومما يزيد فى قيمتها الأدبية أنها تطرد فى سياق واحد، فلا تتخلف ميزة عن أختيها، فى قصيدة من قصائد الديوان، بل تظهر ثلاثتها متجاورات متآخيات !!

وإذا كان الشاعر فى جميع قصائده متشائماً متضايقاً، برماً بما حوله من الناس والأحياء، فهذا مما لا يؤخذ عليه فى شىء، لأن لكل إنسان آماله وأحلامه. ومهما احث السير نحو أهدافه فلن يقرب من مثله وأشواقه، وهنا تكون الحسرة الوحية بالتشاؤم والقلق لدى أكثر الشعراء، وقد يكون الحظ التعس مولعاً ببعضهم فيقف له بالمرصاد، ينغص عيشه، ويكدر حياته، وينقله من الخفض الناعم، إلى الجدب الموحش ويجسم له أشجانه فتصبح أشباحاً قائمة، تطوف أمامه موترة بالسواد، وتظل طيلة ليله عابرة أمام عينيه، تشرد نومه، وتهيج بلابله، !! وصاحب الديوان أحد هؤلاء الرازحين فى ليل من البلابل والشجون، وتظهر ميزته الأولى فى دقة التحليل وعمق الاستقصاء، حين يتحدث عن أشجانه ورزاياه !! فيصف لك البوم الذى ينعب فى صدره مولولا، ويسمعك الصخب الدائم بين الضلوع فى ظلمة الليل وقد سكنت حركة الأحياء والأشياء، ويريك الأشباح المتواكبة أمامه، وقد ملأت مسامعه بالزمازم والرعود، وأسلمته إلى الذكريات البعيدة والقريبة فبعيدها ضعيف الجرس، حار الأنة، وقريبها صاخب ملحاح شديد اللوعة والغرام، والشاعر فى حيرة مقلقة بين القريب والبعيد، ولن تقف هذه الحيرة أمام شاعريته، بل أفسحت له مجال الوصف والتحليل فاندفع يقول

يلف الدجى تمنى مراح بلابل ⠀⠀ ومثوى شجون لا تريم جثوم

لها صخب خلف الضلوع مبعثر ⠀⠀ فمن ناعب يذكى الأسى وبوم

كأنى ناى فى يد الليل جائش ⠀⠀ بما فى الورى من رائع ودميم

إذا أذهب الليل الحياة أعادها ⠀⠀ قياى على أعبائهـا وازورى

ألا شد ما أوقرت نفسى بفادح ⠀⠀ أنوء به تحت الظلام جسيم

وأشباح ليل ما تنى فى هتافها ⠀⠀ أذنت لها من بعد طول وجوم

ففى الشرق منها هاتف بزمازم ⠀⠀ وفى الغرب منها هاتف بهزيم

وطوراً يشق الليل داع مرزأ ⠀⠀ بصوت من البعد السحيق سقيم

له أنة حرى على ضعف جرسها ⠀⠀ كأنه مصدوع الفؤاد كظيم

وتصخب طوراً حين أصغى لها معاً ⠀⠀ فأمسى كأنى فى مناحة بوم

من الطارق الملحاح بابى، وفكرى ⠀⠀ يد فى الدجى ألوت بكل نؤوم

وكثير من الناس يسهرون الليل ساهمين محزونين يفكرون فى حظوظهم العاثرة، وسيجدون صورة ما يتقادم من الشجن والرعب فى هذه الأبيات، ونظائرها من الديوان، وكم للنفس

من خلوة رهيبة ، تكتنفها الوحشة ، وترتمد لهـــا الفرائص الصلاب ، ولا فرق بين السير فى غابة رهيبة نائيــــة ، وبين التسرب فى أعماق السجون ، وتذكر المصائب والويلات ، والحزين من هواجسه فى مأسدة عالية الزئير ، مرتفعة الصياح ، فليس عجباً أن يسمع الشاعر فى وحدته الساكنة ، مناحة البوم ، ورنين الأنات ، ويرى تواثب الأشباح أسرابا خلف أسراب !

وقد استعان الأستاذ الصمدى بخياله الجنح الطائر ، فنظم ملحمة طويلة يصف بها يوم البعث كما ينطبع فى مخيلته ، ولم يشأ أن يصور حلقات سريعة لما يتخيله من الحوادث والوقائع فحسب ، بل أراد أن يبرز فلسفته فى الحياة والناس فى جو من الإيحاء والإبهام ، ولم يفارقه تشاؤمه المرير قيد لحظة ، بل ظل يظافر بين سطوره من بيت إلى بيت دون أن يخلد إلى الراحة والاطمئنان ، بل إن الملحمة تدور حوله رائحة غادية !! فحين نفخ إسرافيل فى الصور ، ونهضت الرمم البالية من الأجداث ، وهبت هبوب الدبا فوق المروج والأعشاب ، ودبت الحياة على الأرض من جديد ، حين كان ذلك ، فزعت الملائكة فى السماء ، وجعلوا يتساءلون عن هـــذا البعث فى قلق وإشفاق ؟ كيف حان على غير أهبة ؟ وما مصيره وعقباه ؟ ولأى غاية كان ؟ !! ولجأوا إلى إسرافيل يستفسرون عما صنع من جليل الخطوب حين نقر فى الناقور ، وقد توجسوا الشر إذ أنذرهم ببعث الآدميين من جديد ، وظنوا الأظانين بأبناء حواء ، واندفعوا يقولون فى حسرة وإشفاق

رويدا ملاك الصور ماذا تقوله … أهبوا على الطابع القديم المدابر
ذئاب سوف ينضون السلاح كعهدهم … فلابا على الأخرى غلاب المناور
فلن يجنحوا للسلم والطبع قائد … يجاذبهم حرص النفوس الغرائز
غرائز غشت تحتها مشرق الحجى … ورانت على الأبصار فوق البصائر
وليس الحجى كالطبائع فيهم مؤصلا … ولكنه للمرء إحدى المفاخر
مضى الناس طرا ما ألموا بقدسه … سوى نفر منهم قلال عباقر
وسائرهم أسرى الغرائز خطهم … عليهن من مأثوره ـ حظ تاجر

وهذه النظرة الجاحدة للإنسان نجد ما يبررها لدى الشاعر من واقع عيشه ، وظروف حيـاته ، فقد نازعه بعض الموسرين منازعة قضائية ، واغتصبوا منه ظلماً مالا يجوز أن يقربوه فى شئ ، والتبس الأمر على القضاء فأيدهم بسلطان القانون ، ولم يجد الشاعر غير القريض ينفس به عن ذات صدره ، ويبثه تباريحه ومواجعه ، فامتلأ ديوانه بهذه القذائف الصائبات

وقد وفق الأستاذ الصمدى فى ملحمته هذه توفيقا جيدا ، فبرزت ميزته الثانية فى التحليق مع الخيال إلى القمم والأجواز ، فلم يبرز يوم البعث ، دون مقدمة تمهد له وتؤذن به ، فالأثير يدوى بأصداء خفاف عوابر ، والأفق موحش يتجاوب فيه الصدى تجاوبا مرهوبا ، والسكون الشامل يدفع الأحشاء إلى حركة تؤذن بالانفجار ، والأثير يتجاوز الخفق — بعد قليل — إلى الزمجرة والقصف ، والضباب يتدجى على الثرى فى تكاثف والتحام ، والدخان يتنقل مع الريح كالدخان المتصاعد من البواخر الماليات … والسحاب والسديم والبحار تأخذ فى مرآة الشاعر صورا مهتاجة فزعة … تجد هذا كله حين تنصت إلى قوله فى مقدمة ملحمته الجيدة

أذنت إلى خفق الأثير وقد هفا … يدوى بأصداء خفاف عوابر
والأفق حولى وحشة أولت الصدى … وضوح شـــهاب عابر فى الدياجر
سكون تكاد النفس توجس خلفه … حشاً مستفزا بانفجار مخامر
على صفحتيه ما بى نبض منذر … كنبض سراج فى السموات ساهر
لآنست إرهاصاً لأمر مروع … وراء أســـارير الأثير الموائر
فلو أن مذياعا يبين ما انطوى … عليه لأجلى موجه عن زماجر
وما هى إلا أن تدجى على الثرى … ضباب إلى غيم على الأفق سائر
وصعدت الأرض الغبار كأنه … على الريح مذرورا دخان البواخر
هنا السديم قد ذرت ، هنا السحب بعثرت … هنا طائر يتزو إلى جنب طائر

وتمضى القصيدة إلى نهايتها فى هذا السياق الرصين !!

والقارئ يغتبط كثيرا لتآخى الجزالة الرصينة مع الخيـال السابح المحلق ، فى شعر الأستاذ الصمدى ، إذ أن التزام الجزالة يصرف الشاعر غالبا من سبحاته النائية ، ومهامهه الشاسعة ، ونحن نرى عشاق التحليق والطيران من الشعراء يسرعون إلى مطارحهم النائية ، ويرتقون إلى أجوازهم العالية فى أسلوب لا يرضى عشاق الرصانة والأسر ، فالتعبير مفكك غير متماسك ، والتركيب مضطرب فاتر ، واقرأ ما لدينا من الشـــعر الحديث فى الملاحم والأساطير ، فلن تجد للرصانة أثرا يرضيك ، بل إنها فى مذهب أصحاب الملاحم ضرب عتيق من التقليد المظلم الذى يحذر

أن يجد سوقه الرائجة في هذا الأفق الطليق ، وقد دفعهم إلى هذا الانهزام القاسي ما يجدونه — غالبا — لدى أنصار الجزالة من ضيق في الثقافة والخيال والتحليل ، إذ أن قصائدهم — في الأكثر — تضطرب في نطاق ضئيل من المعاني المتوارثة الشائعة — وإذا جنحوا إلى الابتكار الشائق فلا يتجاوزون حدود الاستعارة والتشبيه ، مما يتعلق بالبيت أو البيتين ، لا أن يعم الابتكار فكرة القصيدة ، وأغراضها وأوزانها ، فتكون له الدقة والطرافة والتوثب ، وقصيدة الشاعر عن يوم البعث محاولة طيبة لتقريب الشقة بين المذهبين المختلفين ، وإن كنا ندعو الأستاذ الصمدي إلى التخلص قليلا من بهارجه اللغوية ، التي تبرز بوضوح في صفحات ديوانه. فقارئ الشعر لا يصبر على مراجعة الهوامش كقارئ المنطق والفلسفة ، ولكنه يريد فاكهة عذبة مريحة ، يلمس في يديه نعومتها الشفافة ، ويرى بعينيه صورتها الخلابة ، ويذوق بفمه حلاوتها المشتهاة ، وهذا ما تحول دونه ألفاظ المعاجم ، في بعض الأحايين ، ومعاذ الأدب أن يفهم القارئ من هذا الرأي أننا نتنكر للجزالة والأسر ، بل نسير بهما إلى أبعد شوط وأقصاه ، ولكننا لا نراهما في حاجة إلى الألفاظ الغريبة عن السمع والعين والفؤاد ، وأكثر ما لدينا من شعر الديوان سائغ رائق ، قد خلص من الغرابة والإيحاش

وقد لاحظت أن الشاعر — أقر أم لم يقر — متأثر في بعض قصائده بشاعرية الأستاذ العقاد ، فقد أخذ عنه حبه للتعليل والتدقيق ، ورغبته في جدله العقلي المترف الذي يندس إلى أغوار الحياة ، فيجد فيها مادة للتفلسف والمقارنة ، وهذا لا يعيب الشعر في شيء — كما يرى السطحيون — ما دام ملموسا واضحا أمام الذهن البصير ، بل يرفعه إلى مستوى شامخ تتواثب فيه العواطف والعقول ، وقد ظهر في هذا التأثر في كثير من قصائد الديوان ، كنجوى الأمل ، وعلى رفات البشرية ، والله والوجود ، وإن لم يلحق الصمدي بأستاذه العقاد في الدقة والصدق والإقناع ، بل وقف منه عن كثب يطارحه ويحاكيه ، واقرأ دعوة الشاعر إلى خداع النفس ، والهروب من الحقائق ، وتناسي الواقع ، لتلمس الشواهد الدالة على ما ندعيه في مثل قوله

قد ضقت بالحق الصراح   فرن لنفسي بالمراء
والعيش عبء فادح   إن لم يموه بالطلاء
أحبب بآلك لامعا   عندي وإن لم ألق ماء
إن كنت لم تنقع صدى   فسواك يغري بالظماء
حسبي بأنك مالئ   عيني سحرا بالرواء
يا أيها الأمل المنمق   من أفانين الغباء
إني لقيت بك السعا   دة وهي حظ الأغبياء
لو أن لي لبا لما   آنست في أفق هباء
أنا لو وثقت بظلها   فعليك يا عقل العفاء

هذا ، وقد عاش الشاعر في الريف فخصه بكثير من خواطره ، فهو يصف طبيعته الفاتنة وسحبه وبروقه وغمائمه ، ويشارك أهله ما يجدون من عواطف وأحاسيس ، فيرثي أقطابه وذوي الوجاهة فيه ، ويرسم ألواحا بديعة للجمال المشترك الموزع بين المروج والحسان والغدران ، مما يزين جوانب الريف ويجلو حنادسه التراكات ، وتعجبني نظراته الاجتماعية الصادقة ، وخلجاته الإنسانية التي التمعت متوهجة في آخر قصيدة « من صور الريف » فهو يحدثك عن تعس العقل وشقائه ، حين لا يجد بدا من الخضوع للأوهام والأضاليل ، بعد أن كابد الداء العضال وأعوزه الشفاء من طريقه الطبيعي للعلاج ، فيلجأ إلى التمائم والرقى والتعاويذ ، على يد أناس جهلة تماسيح !! راميا بآخر سهم في كنانته ، وذلك قصارى ما يستطيع !!

وجاء شيوخ الحي والكل ناهض   بإبلاله من دائه المتفاقم
وقالوا عليه بالسحر لكأنها   أسود ليوث ساء طب الضراغم
ومسوا بأيديهم يديه وأقبلوا   يلوكون بالأفواه رجع المهام
وقال كبير القوم خذ هذه الرقى   فنطها على اسم الله فوق الجماجم
ونطت بأعلاه التمائم والرقى   على سوء ظني في الرقى والتمائم
ورب فتى لم يعصم العلم نفسه   فيأتي بها ضعفا إلى غير عاصم

ولهذه الوثبات الرائعة نظائر متناثرة في صفحات الديوان ، وقد يجمح بنا اليراع إذا تناولناها ببعض التشخيص في هذا النطاق الضيق المحدود !!

ولعل بهذا العرض السريع ، لأبرز عناصر الديوان ، ألفت كثيرا من القراء إلى الاطلاع عليه وتقديره ، وقد يكون إعجابي به دافعا إلى التغاضي عن بعض هناته الطفيفة ، فعين الرضا عن كل